الخصائص الأسلوبية والمنهجية
سِيَرُ الأعلام عند ابن حزم الأندلسي

د .عبد الرحمان إكيدر

تميز الأندلسيون من غيرهم في غزارة كتاباتهم في مجال التراجم والطبقات وسير الأعلام والنبلاء، ويعد ابن حزم (٤٥٦هـ) نموذجاً لهؤلاء الأدباء الذين نبغوا في هذا المجال المعرفي تأليفاً ومنهجاً، ويتضح ذلك جلياً في ما خلفه من كتب ورسائل قيمة، على الرغم من ضياع كثيرٍ منها، إما بسبب حرقها أو مصادرتها في أثناء الفتنة البربرية، أو تلك التي أُهملت وضاعت ولم يعثر لها على أثر. ويحصي إحسان عباس في مقدمة المجموعة الثانية من (رسائل ابن حزم) عدداً من مؤلفات أبي محمد المفقودة، أبرزها:

- ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس.
- مراتب العلماء وتواليفهم.
- نَسَب البربر.
- تسمية الشعراء الوافدين على أبي عامر المنصور.

وأمَّا ما تتضمنه رفوف الخزانات العربية فهو جزء يسير من مؤلفات ابن حزم الأندلسي في سير الأعلام، إلا أنها عظيمة الفائدة، غنية المحتوى، محكمة المنهج. وتميز أبو محمد في كتابة التراجم والطبقات والأنساب بأن جعل الأدباء أصحاب السير والتراجم والعلماء والمؤرخين على حد سواء، وقد اقتدى بنهجه وطريقته عدد من كُتاب التراجم والطبقات،

واعترفوا بفضله الكبير، وأخذوا عنه كثيراً، وأشادوا به. فقد أخذ عنه تلميذه الحميدي الذي روى عنه معظم الحوادث والأخبار والتراجم وسلك مسلكه. وأكد ابن بشكوال أن ابن حزم هو رائد المعرفة بالسير والأخبار، إذ يقول في كتابه الصلة: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار»[1]. ويُعزى اهتمام ابن حزم بسير الأعلام والطبقات إلى مجموعة من العوامل، يمكن إجمالها في دراسته المبكرة للتاريخ، وإلمامه بأخبار الرجال والأمم، وتخليده لأمجاد الأمة الإسلامية وأعلامها البارزين، والدفاع عن الهوية الأندلسية، وبروز هذا المجال المعرفي في الثقافة الأندلسية بشكل لافت للنظر.

وقد توافرت لابن حزم أكثر الوسائل التي تلزم المؤرخ، وفي مقدمتها سعة الاطلاع على المؤلفات التاريخية ومناهجها المختلفة ومنازعها المتعددة، وقد حاول عبد الحليم عويس في كتابه (ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري) أن يجمع أسماء الكتب التي اطّلع عليها ابن حزم وأفادته في هذا المجال، ولكن كل ما يمكن أن يعد في هذا المقام يبدو قاصراً عن تصوير الحقيقة، إذ الواقع أن ابن حزم اطلع على أكثر ما وصل الأندلس من كتب التاريخ والأعلام والسير التي كتبها المشارقة، وعلى ما كتبه الأندلسيون أنفسهم، وذلك كله يصور مدى تحصيله في التاريخ الإسلامي خاصة، فأما تواريخ الأمم الأخرى فيبدو أنه وقف فيها عند مصادر معينة، مثل التوراة والإنجيل وتاريخ بوسيفوس، والأرجح أنه قرأ تاريخ هورشيوس الذي نُقل عن اللاتينية في أيام عبد الرحمن الناصر، كما كان مطّلعاً على الأحداث المعاصر له أو مشاركاً في صنعها، واعتمد أيضاً على الروايات الشفوية، ولقاء الشيوخ، ومحاورة الأقران، وكان لوالده الأثر الفاعل في توجيهه نحو هذا العلم، بحكم مكانته الاعتبارية والسياسية في المجتمع الأندلسي، فهو مصدر مهمٌّ لكثير مما نقل من روايات لم تكن تقف عند ظاهر الخبر، بل تفعل في نفسه فعلها، وإلى مثل ذلك يشير بقوله «حدثني وهزني الوزير والذي نضّر الله وجهه»[2]. ولعل والده هو الذي نبهه إلى التقاط الغرائب والنوادر، لكثرة ما كان يقص عليه منها، ولمكانته في الدولة حيث كان عارفاً بما يجري حوله من دقائق الأمور، كما أن تلك المكانة جعلت مجلسه حافلاً بشخصيات العصر، وفي ذلك المجلس استمع الابن إلى الأحاديث الدائرة والروايات المختلفة.

ويعدّ ابن حزم علم النسب جزءاً من (علم الخبر)، وفرضاً وجب تعلمه، يقول: «فأما الفرض من علم النسب، فهو أن يعلم أن النبي محمداً الذي بعثه الله تعالى إلى الجن والإنس بدين

الإسلام، هو محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي، الذي كان بمكة، ورحل منها إلى المدينة. ومن الفرض في علم النسب كذلك أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز إلا في ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له، وهذا لا يجوز أصلاً، وأن يعرف الإنسان أباه وأمه، وكل من يلقاه بنسب في رحم محرمة، ليجتنب ما يحرم عليه من النكاح فيهم. وأن يعرف كل ما يتصل به برحم توجب ميراثاً، أو تلزمه صلة أو نفقة أو معاقدة أو حكماً ما، فمن جهل هذا فقد أضاع فرضاً واجباً عليه، لازماً له من دينه»[٣]. كما يعدّ صاحب (جمهرة أنساب العرب) أن معرفة أسماء أمهات المؤمنين وأكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار هو فرض كفاية.

ويحدد ابن حزم مجموعة من الغايات الداعية للتأليف في سير الأعلام، وهي:

- الزهد في الدنيا: وذلك بمعرفة تقلُّبها بأهلها، وأحوال الملوك الظالمين الذين لم ينفعهم حشودهم للأموال والجيوش.

- القوة الحسنة: إذ يقف المرء على خصال المتقين الأخيار وفضائلهم فيرغب، ويسمع ذمهم للرذائل فيكرهها، ويقرأ أخبار الصالحين فيحب أن يكون منهم، وأخبار المفسدين فيمقت طرائقهم.

- العبرة بالفناء، وتعاقب الأجيال، وانتقال الأحوال من عمران إلى خراب.

- تمييز الصواب من الخطأ في الأخبار: فحين تتناصر التواريخ على تفاوت الزمان والديانات في نقل قصة، فهي حق، وحين يحدث الخلاف، يدري الدارس أن القصة مضطربة.

- تحقيق المتعة والتنشيط: وذلك لأن علم الأخبار سهل على الإنسان أن يعتمد قراءته وقت سآمته من درس العلوم الأخرى أو وقت فراغه من العمل فيها، وكل هذه الأغراض تدل على أن التاريخ ومعرفة الرجال وأحوالهم وطبقاتهم، تحتل مكانة مهمّة عند ابن حزم، وعلى دورها في بناء شخصية الفرد من الوجهة الأخلاقية والنفسية، خصوصاً أن دارسه لا يحتاج إلى شيخ يوجه خطاه، بل يستطيع أن يعتمد على نفسه في طلبه[٤].

اتسمت كتابات ابن حزم في سير الأعلام بأسلوب أدبي راقٍ، ودقة علمية متناهية، حيث يجد القارئ متعة في أثناء تتبعه لأحوال الرجال والأمم بعيداً عن الرتابة السردية والملل في عرض المعلومات، وذلك في قالب نثري تتخلله أحياناً أبيات شعرية للمترجَم لهم، واستشهادات من القرآن الكريم والسنة النبوية والحكايات المتواترة منها والنادرة. ويُستشف من أسلوب

ابـن حزم خاصيتان تلقيان ظلالاً من الشك على دور المترجـم والمؤرخ لديه: إحداهما هي القطـع والحسـم البات مثل: (لا بد) و(لا شك) فهذه إذا لم يكـن لها ما يسوغها تمس جانب الدقة عنده. والثانية هي الحدة في الخطاب، وهي تمس جانب الإنصاف في المؤرخ، ولاسيّما حيـن تتطابق لديه شخصيـة المتكلم الجدلي مع شخصية المـؤرخ، وكلتا الصفتين لا يمكن نفيهما عنه والإقلال من تأثيرهما في نفس من يدرس دور المؤرخ لديه، ولكن إذا استحضرنا شخصيتـه في إخلاصـه، وصدقه، وصراحته، واعتداده بذكائـه، واطلاعه، كان قبول هاتين الخاصيتيـن أمراً ممكناً، فالحسم البـات لا يكون إلا من ثقة لا يشوبها غرور كي يجد قبولاً. والحدة قد تكون ذات علاقة بوضع نفسي أو تعويضاً عن فقدان شيء ما. أمَّا نُقُول ابن حزم فكانـت تحمل طابع الأمانة العلمية، خصوصاً في كتابته للسيرة، وذلك في مسائل كَثُر حولها الاختـلاف ولاسيّما تأريخ الأحداث وزمان وقوعهـا، وإن إيراد بعض الأمثلة المنقولة ليوضّح جانباً مهماً من قيمة هذه السيرة وما تنفرد به عن غيرها من السير.

إنَّ هـذه الدقة البالغة في تحليل النص المنقـول، واختيار الرواية الصائبة بعد الفحص والنظـر والمقارنة وتصحيح الأوهام التي تنجم عن سرعة أو قلة تدقيق، كلها ميزات لا يستطيع أحد أن ينكرها عند ابن حزم، وهو الذي عُرف بين معاصريه بالضبط الدقيق في تقييـد التواريخ، حتى إن تلميـذه الحميدي لا يفتأ يقول كلما وجد رواية أستاذه تخالف رواية غيـره: «وأبو محمد أعلـم بالتواريخ»[٥]، أو كلاماً بهذا المعنى. ولذلـك جاءت كتاباته تحمل رأيـاً قاطعاً لا تردد فيـه ولا تأرجح في ضبط التواريخ، لا لأنَّ ابن حـزم مؤرخ شديد الدقة والضبـط فحسب، بل لأنـه ذو رأي مستقل في طريقة التأريخ الهجـري، فهو يعدّ شهر ربيع الأول وهو الشهر الذي هاجر فيه الرسول إلى المدينة أوَّل السنة الهجرية، محرراً بذلك تأريخ وقائـع السيـرة بنسبتها إلى الوقت الذي وقعت فيه الهجرة فعـلاً، وهذا يوضح مدى حرصه في التدقيق وفي ضبـط التواريخ، مما جعل المؤرخين وأصحاب السير يفضلون الأخذ عنه، والاستشهاد بكلامه.

وقـد تطـول التراجم عند ابن حزم أو تقصر، وقد تفيضـ أو تغيض تبعاً لأغراض كثيرة يرجـع بعضها إلى تكوينه العلمي نفسه، وبعضها إلى طبيعة المترجَم لهم، ولا شك أن طائفة المعارف والمعلومات والحقائق التي تتصل بالمترجَم له تعين كثيراً على الإطالة في الترجمة، وعلـى فسح مجال القول فيه، فقد أطال، مثلاً، فـي تراجم معاصريه كخلفاء عصره وعلماء الأندلـس، وكل ما استحق اهتمامه، على أن السمة الغالبة في كتاباته هي الإيجاز والاختصار

كما هو الشأن في (جوامع السيرة)، و(رسالة ذكر الولاة والأمراء وعدد أيامهم بالأندلس)، و(رسالة نقط العروس)، و(رسالة في أمهات الخلفاء)، وغيرها. وقد صنف موضوعاته في فصول وأبواب، وهذا ليس بغريب عنه وهو صاحب التصنيفات، فقدم مادته في قالب منتظم ومحكم، تسهل للقارئ حسن الاطلاع والتتبع والانتقال من موضع لآخر.

وإذا استعرضنا كتب سير الأعلام والطبقات في الأدب العربي ولاسيّما في الأندلس لرأيناها لا تجري في ترتيب الأعلام على نهج واحد، فكل مؤلف يختار الطريقة التي يجدها أوفى بالغرض، وأسهل في التناول، وقد جرى أكثرهم على ترتيب الأعلام حسب حروف المعجم، إلا أن ابن حزم رتب الأعلام المترجم لهم حسب التسلسل الزمني، وهذا يتضح جلياً في مؤلفاته: (جوامع السيرة)، و(رسالة في أسماء الخلفاء والولاة وذكر مُدَدِهم)، وذلك من خلال الإشارة إلى سند الحديث وذكر من أخبره أو حدّثه بالموضوع، مع التعليق عليه في بعض الأحيان، فكان كل من خصه بترجمة تعمق في ذكر نسبه وأصله مع التدقيق التام والتحقيق في النسب، وهو أدرى من غيره في هذا المجال، فنجده في (رسالة أسماء الخلفاء والولاة وذكر عددهم) يخص كل خليفة بنسبه، ويوم مولده وكنيته ومدة خلافته وسنة وفاته وكم عمّر، مع ذكره في بعض الأحيان لحيثيات تولية الخلافة ومنجزاته وصفاته الخلقية، ثم يختم بذكر اسم أمّ المترجَم له ونسبها، وإذا شك في نَسَبٍ أو في تاريخ ما، صرح بذلك كقوله في الرسالة نفسها عند حديثه عن ولاية الخليفة إبراهيم بن الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم: «فأقام ثلاثة أشهر مضطرب الحال، مُخالف الأمر، إلى أن انخلع لمروان بن محمد بن مروان بن الحكم. وبقي حياً إلى أن قيل إنه مات غرقاً يوم الزاب، وقيل مات قبل ذلك. يكنى أبا إسحاق، أُمُّه أم وَلد لا أعرف اسمها»[٦]. وبجانب اهتمام ابن حزم بالإشارة إلى الألقاب، «فقد افتتح الرسالة بهذا الموضوع ثم عاد إليه في الفقرات ٨٤، ٨٥، ٨٦، حتى إنّه اقترح ألقاباً صالحة للاستعمال، ومثل هذا الاهتمام لا يتطابق وعدم إيمانه بجدوى الألقاب، فهو يقول في التعليق على كثرة الألقاب وقلة غناء الملقبين، وتدني الحال إلى أن انتحل السماسرة واللصوص والأنذال ورذالات الناس الألقاب لأنفسهم، وقد كانت دولة عبد الملك وبنيه الوليد ويزيد وهشام وعمر بن عبد العزيز لا عضد لها ولا عماد، ولا لقب إلا أسماؤهم وأسماء آبائهم فحسب، وقد طبقت الدنيا خساسة وضعفاً ومهانة»[٧].

كما تميز عمل ابن حزم بجمعه لأشياء متفرقة ومتباعدة تحت موضوع واحد، وكان يعقد فصلاً يعدد فيه سرايا العَلَم ويذكر فيه أبناءه وأزواجه، وربما جمع المادة الواحدة تحت عنوان

واحد، متوخياً في ذلك الاستطراف والجدة، مثل تسمية من ولي الخلافة في حياة أبيه، من ولي الخلافة وأخوه أسن منه، من كان له اسمان من الخلفاء، وأقصر الخلفاء عمراً، من تسمى بالخلافة من غير قريش...إلخ. ويظهر من خلال هذه الطريقة أن ابن حزم كان دائم التقييد في أثناء مطالعاته، وأن مثل هذه الرسائل هي مجموعات من تلك المقيدات، ولم يكن ابن حزم مبتكراً لهذه الطريقة، فقد مهَّدَ لها من قبْلُ عددٌ من المصنفين من أمثال ابن قتيبة في كتابه (المعارف)، وابن حبيب في كتابه (المحبر).

واتسم منهج أبي محمد بالتأثر بالمذهب الظاهري، فقد كان لهذا المذهب الأثر الكبير في منهجه التاريخي، وهو يعرب عن رأيه إزاء بعض الحوادث التاريخية المهمة، يحدوه في ذلك عاملان، عامل ديني يسيطر على حياته الفكرية وينم عن إيمان عميق وورع أصيل في النفس، والآخر تلك النزعة الأموية التي واكبت حياته السياسية. ومما يعاب في أسلوبه استعمال عبارات تبرز شيئاً من حدة مزاجه وغضب اللسان حتى قرن لسانه بسيف الحجاج، ولا سيّما وأنه كان مجادلاً ومناظراً. ولخص ابن حيان المؤرخ مشكلة ابن حزم خير تلخيص حين قال: «فلم يكن يُلَطِّفُ صدعَهُ بما عنده بتعريضٍ ولا يَزُفُّه بتدريج بل يَصُكُّ به معارضه صكَّ الجَنْدَل وَيَنْشُقُه متلقيه إنشاقَ الخردل، فَيُفِرُّ عنه القلوب ويوقع بها النذوب حتى استهدف إلى فقهاء وقته فتمالؤوا على بغضه وردوا قوله وأجمعوا على تضليله وشنَّعوا عليه»[٨]. ومن أحكامه على بعض الأشخاص، يقول في سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين: «وهو الذي كان شؤم الأندلس وشؤم قومه، وهو الذي سلَّط جنده من البرابرة فأخلوا مدينة الزهراء وجمهور قرطبة حاشا المدينة، وطرفاً من الجانب الشرقي، وأخلوا ما حوالي قرطبة من القرى والمنازل والمدن، وأفنوا أهلها بالقتل والسبي، وهو لا ينكر ولا يغير عليهم شيئاً»[٩]. كان ابن حزم يحكم على الرجال بالأقوال ولا يحكم على الأقوال بالرجال، ولهذا فلم يسلم من تجريح ابن حزم كل من استحق ذلك وفق أصول منهجية محددة وقد جاءت رسالته في (المفاضلة بين الصحابة)، مثلاً، تحمل مجموعة من العبارات التي تكشف في طياتها قوة في الرد والنقد ورد الأكاذيب، كقوله: «وإن عارضنا معاند أو جاهل أو قليل الحياء»، و«هذه القحة المجردة والبهتان»، و«كذب هذا الآفك»، و«كذب هذا الجاهل»، و«اعترض بعض أهل القِحَة»، و«هذه مجاهرة بالباطل»، و«لو كان لهؤلاء الأرذال حياء أو علم»، و«ساقط متروك ليس بالقوي»، و«متفق على ضعفه»، «غير ثقة»... إلخ. إن مثل هذه العبارات تشي أحياناً بغيرته، كما تبين موقفه تجاه بعض الرواة وبعض المترجَم لهم.

أسهم ابن حزم الأندلسي في تدوين سير الأعلام من أمراء وعلماء وفقهاء، مسجّلاً ذلك في كتب ورسائل سلّطت الضوء على المجتمع الأندلسي اجتماعياً، وسياسياً، وعلمياً. ولم تقتصر هذه الكتابات على الأندلس فحسب، بل شملت حضارات أخرى في المشرق والمغرب، وذلك بأسلوب محكم ومنهج علمي دقيق يراعي التثبيت والضبط والتحقيق، وذلك في قالب ممزوج بنوادر وقصص وحكايات في السياق للترويح عن القارئ وجلب الانتباه. وهو أسلوب أخذ عنه اللاحقون وأشاد به كثيرون. مما بوّأ الرجل مكانة متميزة في هذا المجال المعرفي، وجعله رائداً من رواد التراجم والسير.

الهوامش

(١)- أبو القاسم ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق: بشار معروف عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠١٠م، ج٢، ص٦٠٥.

(٢)- ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٧، ج٢، ص٩٤.

(٣)- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ذخائر العرب، ٢، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨٣م، ص٢.

(٤)- انظر: فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ص٤١٢.

(٥)- محمد بن فتوح الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، سلسلة التراجم الأندلسية، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠٠٨م، ص٤٢٥.

(٦)- ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، (رسالة أسماء الخلفاء وذكر عددهم)، ج٢، ص١٤٥.

(٧)- ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، (رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء)، ج٢، ص٣١.

(٨)- انظر: ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، ج٣، ص٢٢.

(٩)- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص١٠٢.